ثقافة الهند

يصدرها مجلس الهنـــد للروابط الثقافية

المجلد التاسع | سبتمبر سنة ١٩٥٨ | العدد الثالث

محتويات هذا العدد

الموضوع

جواهر لال نهرو يكتب عن:

رامـــــاين

تعريب: محى الدين الألوائى

حياة «راما» الخالدة

إن النطق الصحيح للفظ «راما» هو بفتح الميم بدون مدها (أى رام)

لا يوجد بين أعيادنا الشعبية التى تحتفل بها الهند بكل حفاوة وسرور، وفى جومليّ بالمحبة المتبادلة والزمالة الكاملة، خصوصا فى الهند الشمالية، عيد شعبي أكثر شيوعا من الاحتفالات باحياء ذكرى قصة راما (Rama) و سيتا (Sita). وإن هذه القصة الشعرية التى كتبها وال ميكى (Valmiki) ثم نقلها تلسى داس إلى اللغة البسيطة الدارجة، قد أصبحت جزءا لا يتجزأ من حياة الشعب الهندوسى. إن تمتع كتاب أو أسطورة بهذه الفاعلية النفاذة أو بهذا الأثر البالغ على ملايين الناس، طوال آلاف السنين المديدة فى التاريخ التطور للهنــد العظيمة، لدليل ساطع على أن يكون ذاك أو تلك ذات ميزات فعالة وقوة خارقة وخصوصيات جذابة، حيث تبهر العقول وتخلب القلوب.

ومنذ أيام طفولتى قد أخذت هندنا العظيمة بمجاميع قلبي. فاذا كانت الهند القديمة من الأسرار الغامضة أحيانا، فكانت ثورة عجيبة أحيانا أخرى. وكلما أحاول لتفهمها وإدراك كنهها، قد ازداد انطباعى وتأثرى بشخصيتها القوية التى مرت بها طوال العصور البالغة فى القدم. وبمعنى آخر كانت حياتى حياة طلب وبحث، وحياة محاولة وسعى لتفهيم هذا الوطن العظيم الذى هو مسقط رأسى. ومن ميزات

هذا الوطن أنه مع تنوعه غير المتناه يحتفظ بتوحده الأصلي. ولا يستطيع أحد أن يأخذ صورة كاملة صحيحة للهند بمجرد أن يزور ناحية واحدة منها دون أخرى، كما لا يستطيع أحد أن يفهمها كاحقه بمجرد أن ينظر إلى حاضرها بدون أن يدرك ماضيها الحافل المديد. لأن جذورنا يرجع أصلها إلى عهود بالغة فى القدم. وقد نبتت أعشاب ضارة لا تحصى خلال زرعنا النافع حينا فآخر، ولكنها لم تفلح أبدا فى اقتلاع جذورنا العميقة الثابتة التى قد كيفت بختنا وشكل حظنا سواء كان للخير أو للشر. إن مستقبل الهند يتكيف ويتشكل شيئا فشيئا من ذلك الماضى العريق الذى هو التاريخ، وهذا الحاضر الذى هو عبء اليوم على عواتقنا وحمله على اكتافنا. وعلينا أن نحاول لتفهم النواحى القيمة والتطورات الصحيحة للتاريخ بكل تعقل وإدراك كاملين. وفوق هذا وذاك يجب علينا أن ندرك الشبه البالغ حول ماضينا وحاضرنا، لأن يكون عونا على توجيه مستقبلنا نحو هدف قويم مثمر لا عوج فيه ولا خلل. فلا أظن أن أحدا يستطيع أن يفهم الهند أو شعوبها فهما شاملا صحيحا بدون أن يلم بمعلومات كافية عن الملحمتين الهنديتين اللتين هما من أعظم الملاحم الهندية الكبرى كما أنهما ذخر الهند وفخرها. أولاهما «راماين» وثانيتهما «مهابهارت».

تعريف راماين

إن «راماين» لأسطورة تحتوى على أهمية بالغة دائمة. وقد أثرت على قلوب ملايين الهندوس وأذهانهم لقرون عديدة. وهذه الأسطورة قد ساعدتهم كثيرا على الفكر العالى، والمساعى النبيلة والتمسك بالقيم الأخلاقية السامية. وحتى إلى يومنا هذا لا نجد قرية من القرى الهندية أو ناحية من ضواحيها إلا وتفسر فيها أسطورة راماين فى اللغة السنسكريتية أو غيرها من اللغات المحلية الرائجة فى تلك البقعة، أمام آلاف الناس رجالا ونساء وصغارا وكبارا يستمعون إليها

وإلى شروحها وبيانها باهتمام كبير وتأثر بالغ. ولا يكون من المبالغة فى شىء إذا قلنا إن الأطفال الصغار يتغذون بأخبار الحوادث الرئيسية الواردة فى راماين منذ أيام الرضاع بواسطة أمهاتهم وهم فى أحضانها. وقد أصاب «روميش جندرا» حيث قال:

«لا توجد فى الهند امرأة هندوكية لم تحط معلوماتها الأولية ودراساتها الابتدائية فى المحيط العائلى عن مقاسات «سيتا» ومعاناتها وعن إخلاصها وإيمانها. وكما أن المرأة الهندوكية تحفظ تلك المعلومات وتعتز بها مدى حياتها».

ويقول جواهرلال نهرو فى معرض الكلام عن الملحمتين العظيمتين — راماين، ومها بهارت — فى كتابه «اكتشاف الهند» (Discovery of India):

«إننى لا أعرف كتابا فى أى مكان له مثل هذا النفوذ المستمر والأثر النفاذ على أذهان عامة الناس وقلوبهم مثل ما لهاتين الملحمتين. وعلى رغم أن تاريخهما يرجع إلى عهود بالغة فى القدم مازالتا قوة حية فى حياة الشعوب الهندية».

وهناك مؤلفات عديدة فى مختلف اللغات نظما ونثرا، تبحث فى حياة راما وسيتا. وعندنا كتاب «راگوامشا» لكالى داس يتناول حياة راما وأعماله بطريقة منظمة منسقة. وإن التمثيليات السنسكرتية التى كتبها الأدباء الممتازون مثل «بهاوا بهودى» ومورارى تعالج نواحى مختلفة من حياة راما. ويمكن أن يقال إن راماين لـ «وال‌ميكى» يقف فى مقدمة صفوف هذه المؤلفات باعتبار البحث الدقيق المستوعب فى حياة راما وسيتا. وتعتبر راماين من إحدى الملاحم الكبرى المعروفة فى العالم أجمع. وتعرف راماين فى اللغة السنسكرتية باسم: «آدى كاويا» لكونها أولى الملاحم تكتب فى الأشعار السنسكرتية.

وتشتمل راماين على أربعة وعشرين ألف (٢٤٠٠٠) شعر فى ست قصائد. وأسلوبها سهل وبسيط. ولا توجد فيها ألفاظ يمجها السماع وتثقل على الآذان. والقصة تسير قدما بكل هدء ونسق كما يجرى الماء الجارى فى نهر واسع. وأما نغمة الأشعار وبحورها محبة على الآذان ومقبولة لدى الأذهان. وتأليف القصة وترتيبها نموذج عال للبيان الشافى والايضاح الجميل للحوادث والوقائع بدون تعقيد ولا تطويل مخل. وأن التصورات التسعة من «شرينجار» Shrinjara إلى «شانت» Shanta قد صورت وشبهت بشكل واضح جميل فى طول القصة. وان وال ميكى لمعروف لتشبيهاته. وكاليداس يعتبر إلى حدما من أتباع وال ميكى فى هذا المضمار. وحتى أولئك الذين لا يعرفون اللغة السنسكرتية يحبون الاستماع إلى القراءة من راماين فى نصها الأصلى فى اللغة السنسكرتية نفسها، وكما أن نغماتها تقع على الأسماع بسهولة وبداعة فايقاعها يثلج الصدور ويبهر العقول. وإن راماين لنموذج حى للأدب الهندى ودليل ساطع على القمة العليا التى وصلت إليها الحضارة الهندوسية فى العصور القديمة. وبصرف النظر عن أساليبها وعباراتها من النواحى الأدبية واللغوية فانها تعتبر نصا مقدسا لدى الهندوس. وأنهم يقدسونه ويتعبدون به، ويعتقدون أن اسم راما من أفضل الأسماء وأشرفها، وأنه حماية من البليات وطلسم من الشرور والآفات. وتجلت قداسة هذا الاسم وعظمته بكل وضوح فى التمثيلية المشهورة «هانومان ناتكا». وإن راماين لتصور للاذهان، نظريات عالية وفلسفة راقية وحكما غالية بطريقة جذابة مشرقة، فتأمر بالأخلاق الفاضلة وتحث على الآداب السامية الفردية والاجتماعية، وفيها قوانين وأنظمة خاصة تعرف بـ «الأنظمة الأزلية» أو «القوانين السرمدية» فى العرف العام. ويرتل المعتقدون هذه القصائد كأناشيد دينية فى مناسبات عدة لأغراض تحصيل السعادة والرفاهية فى شتى مرافق الحياة البشرية. ولهذه الأسباب كلها تدعى هذه القصة — أو الملحمة، إذا صح هذا التعبير، باسم

«أنوجرها جارتها» أى كتاب الرحمة. ويقال إن وال ميكى كان ناسكا أميا، ولكنه استطاع لأن يكتب راماين بفضل نعمة من الاله «براهما». وإذ أنعم عليه من رحمته الخاصة، تمكن بفضلها أن يرى كل شعبة من شعب حياة راما وحوادثها كشاهد عيان. وكما أن براهما قد منح لـ «وال ميكى» قدرة خارقة لابداء آرائه ووجهات نظرياته بشكل قصة شعرية حسب إرادته، باركه الاله براهما بقوله: «إن راماين ستبقى فى الأرض مألوفة شائعة ما دامت الجبال والأنهار باقية فيها». وقد صرح وال ميكى من دوره عدة مرات بأن الذى يقرأ راماين سيحظى دائما برحمة من الاله ونعمته. وأخيراً — وليس آخرا — فان هناك اختلافا شديدا فى الآراء بين المؤرخين وأهل الأساطير حول حقيقة راما.

من هو «راما»؟

إن المدرسة الأرستقراطية المحافظة تعتقد وتتمسك بالرأى القائل بأن «راما» مجسم إلهى. بينما تتمسك المدرسة الحديثة بوجهة النظر القائلة بأنه كان إنسانا عاديا، ولد أميرا فى العائلة الملكية فى مدينة أيودهيا. ثم جاهد واجتهد لنيل السعادة والحصول على حظ وافر من الفضل والتقى والمعرفة. ويصرح بهذا الرأى الأخير الفيلسوف الكبير وى. ايس. سرى نواسا شاسترى.

وفى رأيى المتواضع أن هذا النزاع من العبث العقيم. وإن المهم فى هذه المسألة هو البحث عن اعتقاد وال ميكى فى راما حينما عقد عزمه لكتابة تاريخ حياته وكيف كان يتمنى أن يفهمه القراء. والذى يظهر بدون شك من رأى وال ميكى وكتاباته أنه كان يعتقد أن راما كان مجسما الهيا. وهو المعروف فى الاصطلاح الهندوسى باسم «أوتار». ونجد فى بداية راماين إشارات وتلميحات إلى أن الالهة قد احتشدوا فى مكان ما، فطلبوا من شرى مهاوشنو لأن يلد

فى الأرض كابن للملك دشارتا، للقضاء على المارد الجبار «راونا» وانقاذ الأرض من مضاره وأشراره. ولا نستطيع أن نتغاضى أو نتجاهل عن هذه الفكرة التى جاءت إشارات واضحة عنها فى صفحات راماين لـ «وال‌ميكى» نفسها. وفى المعركة المعروفة التى وقعت بين راما وبين پرشوراما، يعلن الناسك البرهمى المقهور أن راما لابد أن يكون «نارايانا» الذى قتل «مادهو». وأن «يدها كندا» (أى القسم الخاص من راماين حول الحروب) يصرح بهذا الرأى بكل وضوح وتأكد. وجاء فى الباب الخامس والثلاثين منه أن «مليا وان» جد «راونا» من جانب الأم، يقول له بأنه يظن أن راما هو الاله «وشنو». ونجد نصوصا فى الباب الثانى والسبعين منه أن «راونا» بنفسه يعترف بهذا الرأى. ومما هو جدير بالذكر وخليق بالاعتبار، ما جاء فى الباب الرابع والتسعين من «يدها كندا» بلسان راما بنفسه، بعد أن أثبت مهارة فائقة منقطعة النظير فى الرماية وحرب السهام ضد «راكتشاس»، حيث قال للذين تجمعوا هناك للتفرج على المعركة الحامية بالسهام:

«إن مثل هذه الجرأة والبسالة لا تأتيان إلا منه (أى راما)، أو من «شيوا».

وبعد أن قتل «راونا» وخرج راما ظافرا مظفرا من المعركة تجمع الآلهة كلهم فى ميدان واحد، وعلى رأسهم «براهما»، ليمنحوا التبرك للفاتح الأعظم وليبلغوه التهانى والتحيات. وصرحوا جميعا بأن راما هو «نارايانا» الذى ظهر فى هذا العالم ليخلصه من «راونا» الشرير وينقذه من مضاره. ولكنه من الصحيح أن راما قال بنفسه ردا لتهانى الآلهة وبركاتهم، بأنه يعتبر نفسه كانسان عادى، ولد كابن للملك «دشارتا». ولكن هذا الجواب المتواضع الذى قاله راما لايكفى وحده حجة على الحكم بأنه كان إنسانا عاديا محضا. ويصرح مؤلف كتاب

«أرانيا كندا» (الذى قام برحلة طويلة استطلاعيـــة فى عدة أماكن مقدسة، سيما إلى «أترى» و «أكاستيا») أن راما كان مجسما إلهيا وكان معبودا للنساك والكهنة فى كل مكان زاره. ونجـــد دلائل واضحة لاثبات الرأى القائل بأن راما كان مجسما إلهيا من التراتيل والأوراد الواردة فى الباب الرابع من الكتاب المقدس الهندوسى المشهور «باج وت جيتا»

وجاء تعضيـد آخر لهذا الرأى فى الأناشيـد الدينية التى تعتبر من القصائد الابتدائية لدراسة «راماين»، حيث جاء فيها:

«إن الاله الذى لا يمكن معرفتـه والتقرب إليه إلا بطريق «ويداس» (اى الكتب المقدسة الدينية الهندوسيـة) قد ولد كابن لدشارتا».

وإن ويداس أيضا لا تختلف فى كثير عن «رامابن» لـ وال ميكى روحا ومعنى. وأما الكاتب «جيا ديوا» فيثبت فى كتابه «غيتا غووند» أن راما كان مجسما للاله «وشنو». ويتجلى ذلك من الأمثلة الواردة فيـــه عند ذكر التجسيمات العشرة المعروفة. وعلى فرض أننا قد اعترفنا بالرأى الذى يريده منا وال ميكى من تجسم راما وتألهه، فنستطيع أن نؤل «رامابن» طبقا للانتقادات الحديثـــة القائلة بأنه كان إنسانا عاديا. وهذا الاعتقاد الأخير لا يناقض مع فكرة كونه معبودا وشخصية مقدسة، بناء على أنه كان رجلا عاديا، قد ربى نفسه على التنسك والربانية، حتى جعل من نفسه رمزا حيا للربانية واللاهوتية. وخلاف ذلك أن هذا الاعتقاد الأخير يساعدنا على استخلاص الاعذار لراما فى بعض الاخطاء والسقطات، التى صدرت منه فى حياته ومعاملاته الشخصية، كما يصدر من أى إنسان عادى بصفة كونه إنسانا ليس إلا. وإن الانسان الكامل هو الشخص الذى يمتاز بشخصيته وقيمه الأخلاقيـــة عن بنى جنسه.

وفى الوقت نفسه لا يكون خاليا من المشاعر الانسانية العامة والطبائع البشرية الخاصة. فليس من المستغرب فى شيء أن تأخذه الدهشة والتعجب تجاه ضعف والده حيث استسلم للاستعطاف من «كاى كائى» الفاتنة. ومن الطبيعى أيضا أن يرتبك الذهن ويتضعضع العقل عند فقدان العزيز الذى يعتز به ويحبه. وإن حكاية قتل «والى» من وراء المخبى. فتبرره وطأة الظروف القاهرة حيث لا مفر منها مع أنه كان حليفا لعدوه «سوكديوا» وأن الشكوك والريبة التى اختلجت فى خاطر راما بأن «بهارت» يريد أن يحتفظ بالمملكة لنفسه فقط فلا يحب عودة راما إلى مملكة «أيودهيا» فهى شكوك طبيعية لا مفر منها فى الظروف التى كانت تحيط بـ «راما» حينذاك.

وبالجملة أن بعض الاخطاء والسقطات التى وقعت فى حياة راما لا يناقض — إذا نظرنا بعين التحقيق والانصاف — مع نظرية التجسم الالهى. وعندما ينزل إله إلى الأرض ليلعب دور انسان خاص، فعليه أن يلعبه كما يصدر هو من طبيعة إنسان آلى إليه أو تجسم به، ويؤدى بنفسه أولا المهمة التى جاء إلى الارض لأجلها، من الاصلاح والتطهير، بشرط أن يكون خاضعا للفطرة الانسانية التى لا مفر منها، من التحلى بالمشاعير الانسانية وارتكاب الاخطاء البشرية العادية. هذا عندما يفرغ من مهمته الأصلية التى جاء لأجلها، وانسحب من فطرته السماوية، وكما أنه سيعود إلى الطبيعة الأولى عند الفراغ من أداء واجباته ومهماته على وجه الأرض. وأحيانا يضطر إلى إعادة فترة تجسمه مرة أخرى، كما فعل راما بعد مقتل «راونا».

مهابهارت

إن الملحمة الهندية الأخرى المشهورة مهابهارت تقال عنها بأنها الخامسة من سلسلة «ويداس» أى الكتب المقدسة الهندوسية. ومن الواضح أن الفلاسفة

لهندوس الكبار يعتبرون مهابهارت كذخيرة للافكار القيمة وخزينة للحوادث والوقائع العظيمة النادرة. ولكنها لا تتمتع بالدرجة والشيوع الذى نالته راماين. لماذا؟ وما هو السر الخفى وراء تفوق راماين على جميع ما عداها من الملاحم والكتب المقدسة؟ هل هو الأسلوب الجذاب الذى اختاره مؤلفه، أو هو ذخر القيم الأخلاقية التى تنطوى عليه؟ أو هو راجع إلى تمسك الناس وإيمانهم بمبادئها ودروسها، أم هو يعود إلى مجرد اسم راما العظيم؟ وهل يرجع ذلك السر إلى مقدرتها الفائقة كأداة فعالة تودى إلى حياة سعيدة، وفكر عال، ونهضة روحية خالدة؟ ربما تكون راماين ذخرا يحتوى على هذه الميزات كلها وتلك الحقائق بأجمعها، مع أن كل واحدة منها لتكفى لاثبات قيمته العالية فى أذهاننا والأخذ بمجاميع قلوبنا. وأن مجرد قراءة راماين من أولها إلى آخرها تقنع القارئ بحلاوتها وروعتها وأثرها الفعال على العقول. ومن الصعب جدا أن نرجح جزءا منها على الآخر. ولكن إذا أراد أحد أن يقوم بمخاطرة انتخاب نخب منها ونبذ ممتازة من فصولها فيستطيع أن يختار المواضيع الآتية:—

الاجتماع بين راما وپرشوراما،

وأحزان «دشارتا» ويأسه عندما طلبت منه «كاى كانى» الايفاء بالوعد الذى أعطاها من قبل،

وسخط «لكتشمان» على فعل والده،

والمحادثات التى جرت بين سيتا وبين «اناسويا»،

ووصف «هانومان» للاخوة،

ونواح «تارا» على موت «والى»،

وتحذير سيتا لراونا، ومقاساتها فى العزلة فى حدائق أشوكا مع «راكتشاس» الذين أحاطوا بها هناك،

ورسالة «هانومان» إلى «راون».

وإن الأسلوب الذى اتخذه «بدها كندا» أى قسم المعارك فى راماين (فى وصف المعارك التى وقعت بين راما وراون من جهة، والقتال العنيف الذى نشب بين لكشمان واندراجيت من جهة أخرى)، لأسلوب يفوق الوصف فى تصوير الوقائع ووضعها موضع العيان. كأن القارئ سيخيل إليه أنها وقائع تجرى أمامه الآن فعلا. وأن وال ميكى قد ابتكر أعلى درجات البراعة والجودة فى تصوير الغابات والادغال وصوامع النساك ومشاهد الحرب. وأن وصفيه للاشجار والجبال والأنهار والسحاب والهلال وغروب الشمس، وصف يدهش العقول ويخلب الأذهان. وأن وصفه لبعض النساك والكهنة لقطعة من المهارة الفائقة والمقدرة النادرة فى قوة البيان ودقة التعبير. وأطال فى تصوير عظمتهم فى التزهد وتزكية النفوس بطريقة تأخذ بلب القارئ وتعود به إلى مرحلة العليا التى تصل إليها الحياة الروحية. ولا يمكن تخصيص جزء من راماين عن آخر، بسبب الابهام أو التعقيد اللفظى أو المعنوى؛ بل وكل جزء منها قابل للاعتزاز بعظمته والاعتراف بجلاله. سواء كان من الناحية المعنوية أو من ناحية الأسلوب الشعرى الذى اختاره واضعها. ولكن البعض يرى أن الجزء الذى جاء فيه وصف لشجاعة «هانومان» وبسالته الفائقتين لهو أحسن الفصول وأروعها فى راماين. وعلى رغم صحة هذا الرأى يمكن أن يقال أيضا إن جزء «بدها كندا» منها (الذى يصف العواطف الانسانية والمشاعير البشرية والتصادم الفكرى والانطباعات الذهنية بأسلوب رائع عال)، ليعتبر من أحسن أجزائه وأجودها دقة وجمالا. ويشتمل هذا الجزء بصفة خاصة على صور حية للمكانة العليا النادرة لراما، وضعف دشارتا، ودهاء كاى كائى، واستياء لكشمان حول المصير المحتوم، واخلاص سيتا وولائها، وعزة النفس لـ «كوساليا»، وذكاء «سومترا»، وصداقة «جوها»، وكرم بهارت ونبله.

حكى أن الناسك المعروف «سرى نراسمها بهارتى سوامى» قد خصص معظم أوقاته بعد الظهر لقراءة راماين من أولها إلى آخرها. ومرة قد تأثر بجمالها وقوة تأثيرها، ونسى كل شيء عن حواليه، حتى أتباعه النساك الذين يجلسون حوله. وقد جلس بدون حراك وعيناه تدمعان من الفرح أحيانا ومن الحزن أخرى، كلما يمر بالمراحل المختلفة من الحوادث والوقائع، كأنها تمر أمامه وتجرى بين يديه. وإذا كان هذا ما قد يحدث مع حكيم «يوغى» قادر على السيطرة على ذهنه وانطباعه. فما بال هؤلاء الذين ليست لهم سيطرة على أذهانهم وأفكارهم؟ وهم دائما عرضة للعواطف البشرية من الخوف والرجاء والحزن والفرح والحقد والبغض وما إلى ذلك من المشاعير الانسانية العادية؟

قصة راماين كاملة

إن رامابن لأقدم القصص الشعرية الهندية، وإن تاريخها ليرجع إلى عصور قديمة. ومعناها: حياة راما. واسم الشاعر الحكيم الذى وضع رامابن هو وال ميكى. وكيف أصبح وال ميكى شاعرا معروفا؟ وهاكم القصة بالتفصيل:

ذات يوم ذهب وال ميكى للاستحمام فى النهر المقدس «غنغا» المعروف. فرأى زوجين من الحمام يحومان ويتبادلان القبلات حينا فآخر. ففرح وال ميكى بهذا المنظر الجميل. ولم تمض إلا لحظة أن أتى سهم حاذق نحوهما وقتل الحمام الفحل، فخر ميتة على الأرض. وعلى إثرها بدأت الحمام الأنثى تحوم حول جثة زوجها فى منتهى الحزن والأسى. وبعد مهلة قصيرة من الدهشة والحزن رأى وال ميكى الصياد واقفا أمامه. فقال له بلسان طلق دلق: هل أصبحت شقيا بهذا الحد؟ ألم تشعر بأدنى درجة من الرأفة والشفقة؟ ألم يكونا يحومان ويعيشان فى محبة وهناء؟ ألم تكن تعترف بأقل درجة من الحب بين الحبيبين؟

وبعد أن فرغ من كلامه مع الصياد تحدث فى نفسه مستغربا بأنه لم يتكلم من قبل كلاما فى مثل هذه الدرجة من الفصاحة والطريقة المنسقة! فسمع نداء من هاتف يقول: «لا تخف ولا تفكر. وإن الذى خرج من فمك هو الشعر، فاكتب حياة راما فى الأشعار لينتفع بها العالم بأجمعه». هذا هو أول شعر صدر من فم وال ميكى. وهذه هى القصة التى تسببت لكتابة راماين فى الشعر.

توجد فى الهند مدينة قديمة العهد تعرف باسم أيودهيا، ولا تزال آثارها موجودة إلى يومنا هذا. وكان يحكمها فى غابر الأزمان ملك يدعى «دشارتا»، وكانت فى ذمته ثلاث ملكات، ولكن لم يكن له منهن أحد من الأولاد. وانهمك الملك والملكات فى أدعية وتضرع وصيام بصفة مستمرة داعين إلى الآله لمنحهم الأولاد. وبعد مدة من الزمن رزق الملك أربعة من الأبناء، أكبرهم كان اسمه راما. وأتم كل واحد منهم الدراسة الكافية فى شتى العلوم والفنون. وساعدتهم على ذلك مكانة والدهم الملك العظيم.

وفى نفس الوقت كان ملك آخر يدعى باسم «جناكا» يحكم بعض المدن الأخرى. وكانت له بنت جميلة تدعى سيتا. وتقول الأساطير الهندوسية إن سيتا كانت ابنة الأرض ولدت بدون أبوين، والتقطها الملك «جناكا» حينما كانت فى سن الزواج. وأراد أن يبحث لها زوجا مناسبا. وتقدم عدد كثير من الأمراء يطلبون يد سيتا. وكانت من العادات المتبعة إذ ذاك لاختيار واحد منهم إجراء مسابقة اختبارية فى كسر قوس قوى عظيم. ويقال لها فى عرفهم «هرادهنو» لحاول كل منهم بكل ما أوتى من قوة للنجاح فى المسابقة الاختبارية ليظفر بسيتا، ولكنهم فشلوا جميعا. وأخيرا أخذ راما القوس الغليظ فى يده وكسره بكل سرعة وسهولة. وهكذا اختارت سيتا راما ابن الملك

دشارتا زوجا لها. وتمت مراسيم الزواج فى حفل بهيج. وبعد أن انتهت مراسيم الفرح والقران أخذها راما إلى منزله.

ولم تمض مدة طويلة لزواج راما أن فكر الملك العجوز والد راما فى التنازل عن العرش، وتعيين راما أكبر أبنائه وليا للعهد. وتمت الاجراءات اللازمة كلها للاحتفال بتتويج راما، واستعدت البلاد كلها من أولها إلى آخرها للاشتراك فى هذا الاحتفال بكل أبهة وسرور. ولكن سرعان ما انقلبت الأحوال، وهى أن مرة كان الملك قد سر كثيرا بالملكة الصغرى وتوطد الاعتماد عليها. فوعدها حينذاك بكلمة حاسمة: «اطلبى منى أى أمر تريدينه فأعطيه لك أيتها الحبيبة مهما كان فى استطاعتى». ولكنها لم تطلب شيئا من الملك وقتئذ. ونسيت كل شىء عن ذلك الوعد، ولكن خادمة شريرة قد ذكرتها وألحت عليها لتطلب من الملك لأن يوفى بعهده السابق. وبدأت الخادمة تعمل وتفسد ضد تعيين راما وارثا للعرش، وقالت للملكة: ما أحسن لها إذ عين ابنه الخاص وارثا للعرش بدل راما! وكانت الخادمة تشجعها وترغبها فيه حتى أن استقرت فى ذهنها تلك الفكرة. واقترحت الخادمة على الملكة أن تسأل الملك بايفاء وعده الذى أعطاه إياها من قبل حول تحقيق أى شىء تريده منه فى دائرة حدود مقدرته. فالأمر الأول الذى تطلبه منه هو تعيين ابنها «بهارت» وارثا للعرش فى مملكته، والثانى إرسال راما إلى الغابات لمدة أربعة عشر عاما يقضيها فى المنفى. وأن راما قد احتل محل الحياة والروح للملك العجوز. وعندما سمع الملك هذا الطلب القاسى من الملكة فكر أنه لا يمكن له كملك عادل أن ينقض بوعده، وتحير فى المسألة. ولم يكن يدرى ماذا يفعل؟ ولكن راما فور ما علم بالمأزق الذى وقع فيه والده قد عرض عليه استعداده التام للتضحية بنفسه ونفيسه فى سبيل انقاذ والده العجوز من تهمة نقض العهد، وأبلغه عزمه لترك العرش والذهاب إلى المنفى. فذهب

راما إلى المنفى فى الغابات ليقضى فيه فترة أربعة عشرة عاما مع زوجته المحبوبة سيتا، وأخيه «لكشمان» الذى ما كان يفارقه فى حال من الأحوال. وفى تلك الأيام كانت القبائل التى تقيم فى الغابات تدعى باسم «القردة» وإذا كان بعض منهم أشداء أقوياء من الآخرين يدعون باسم «العفاريت». وإن الغابة كانت تابعة للعفاريت والقردة كلتيهما. وعندما أبدت سيتا استعدادها لمصاحبة راما إلى الغابة سألها راما: كيف تستطيع أنت يا سيتا كامرأة أن تتحمل المشاق والمتاعب لأجل صحبتك معى إلى الغابات التى تحيط بها أنواع من المخاطر والمصائب من كل الجوانب؟ فأجابت سيتا فورا: «حيثما يذهب راما تذهب معه سيتا، ولا تستطيع أن تتحدث معى كأميرة أو بالنظر إلى أنى ولدت فى عائلة ملكية وإنى أذهب قبلك إلى المنفى. ولن أفارقك أبدا».

وهكذا ذهبت سيتا مع راما إلى الغابات وكما أن ذهب معه إليها أخوه الصغير. وتغلغلوا إلى داخل الغابات حتى وصلوا إلى ضفة نهر جوداورى وبنوا لهم كوخا على شاطئ النهر. ويذهب راما ولكشمان لصيد الغزال وجمع الثمار.

وبعد أن أقاموا هناك لمدة قصيرة وصلت ماردة جبارة إلى مقربة من كوخهم، وهى أخت الملك المارد الذى كان يحكم على سيلان. وأثناء تجوالها فى الغابات، وقع نظرها على راما ووجدته شابا بسيما جميلا. فوقعت فى حب شديد فيه. ولكن راما لم يكن يستطيع أن يتبادل الحب معها، لأنه كان رجلا متزوجا وفيا نقيا. وعلا رأس الماردة حب الانتقام والثار. فذهبت إلى أخيه الملك المارد وقصت عليه عن سيتا وعن جمالها الفتان وحسنها الخلاب. وكان راما أقوى الأبطال وأشدهم بأسا حيث لا يستطيع أحد من القردة أو العفاريت أن يتغلب عليه. وكان على مارد سيلان أن يلجأ إلى حيلة أخرى إذا أراد التغلب على راما. فحصل على مساعدة مارد آخر من السحرة المهرة. فحول الساحر

نفسه إلى شكل غزال جميل بدأ يرتعى حوالى كوخ راما، حتى رأته سيتا ورغبت فيه، وقالت لراما لصيده لها. فذهب راما وترك أخاه لكتشمان عند سيتا. وإن لكتشمان قد وضع خطا سحريا حول كوخ سيتا، فقال لها إنى أرى أن بعض الحوادث المؤلمة قد تحدث لك اليوم. لهذا أرجو أن لا تجتازى هذا الخط، ولا تخرجى من البيت إلى خارج هذا الخط السحرى. وفى نفس الوقت رمى راما سهما إلى الغزال المذكور، فأصابه فانقلب فورا إلى شكل مارد جبار وخر ميتا. وعلى إثر ذلك سمع لكتشمان صوت راما فى الكوخ ينادى لمساعدته. فقالت له سيتا إذهب فورا إلى الغابة لمساعدة راما، فانه يناديك. فاحتج لكتشمان قائلا إن هذا ليس بصوت راما. ولكنه اضطر أخيرا للذهاب إلى الغابة بالحاح من سيتا.

وفور خروج لكتشمان من الكوخ إلى الغابة، قام الملك المارد الذى قد تحول إلى صورة ناسك متسول بباب كوخ سيتا، سائلا الخيرات. فقالت سيتا: «إنتظر قليلا حتى يرجع زوجى، فأعطيك خيرات كثيرة». فقال الناسك المتسول: إنى لا أستطيع الانتظار يا سيدتى الطيبة، فانى جائع جدا، أعطينى ما عندك بدون تأخير». فعندئذ جمعت سيتا ما كان عندها من بعض الثمار، ومدتها بيدها إلى الناسك الذى كان واقفا خارج الكوخ. ولكن الناسك طلب منها أن تأتى بها إلى الخارج بلا خوف، لأنه رجل متدين قديس فلا داعى إلى الشك والريبة. وعقب أن اجتازت سيتا الخط السحرى الذى وضعه لكتشمان انقلب الناسك المتصنع إلى صورته الأصلية كمارد عملاق، وأخذ سيتا بيده. ثم دعى براقه السحرى ووضعها فيه، فطار بها إلى مملكته وهى تبكى وتصرخ بدون جدوى، وليس هناك أحد للوصول إلى نجدتها. وبينما كان المارد يطير بها فى براقه أخذت سيتا بعض الحلى من يديها وألقتها فى مسافات متقطعة إلى الأرض.

وهكذا أخذها المارد «راون» إلى مملكته فى سيلان. وطلب منها الموافقة

على كونها ملكة له، واستخدم عدة وسائل لاجبارها على الموافقة على طلبه، ولكنها رفضت رفضا باتا بل وقد امتنعت سيتا التى كانت صورة حية للعفة والطهارة حتى من مجرد التكلم معه أو الاستماع إليه. وأخيرا عزم المارد على استخدام وسائل الضغط والتعذيب معها، فوضع سيتا تحت شجرة عزلاء ليلا ونهارا، تقاسى الحر والبرد الشديدين، لكى تقبل هى لأن تكون زوجة له.

ولما عاد راما ولكشمان إلى الكوخ ولم يجدا فيه سيتا، غرقا فى أسى وحزن بالغين. وما كانا يعرفان شيئاً عما حدث لها. وخرج الاخوان فى البحث عنها فى كل مكان، ولكنهما لم يجدا أى أثر لها. وبعد بحث طويل وصلا إلى مجموعة من القردة، وفى وسطهم القرد القديس «هانومان». وأخيرا توثقت العلاقات وتوطد التعارف بين راما وبين هؤلاء القردة. وأبلغوا راما أنهم رأوا براقا سحريا يطير فوق رؤوسهم وفيه مارد جبار وبيده فتاة جميلة تبكى وتصرخ، وعندما طار البراق فوق رؤوسنا ألقت علينا بعض الحلى للفت أنظارنا إليها. فقدموا إلى راما بعض الحلى منها. فتعارف راما فورا على أنه لسيتا. فقال هؤلاء القردة لراما عن شخصية ذلك الملك المارد وعن مقره. ووعدوه بمساعدته فى العثور عليها.

هذا، وفى ذلك الوقت كانت تجرى حرب شعواء بين ملك القردة «والى» وبين أخيه الصغير «سوكديوا». وقرر راما لمساعدة سوكديوا فى الحرب فساعده. وبعد أن انتصر الأخ الصغير سوكديوا وطرد «والى» من العرش، وعد لراما لمساعدته فى البحث عن سيتا مكافأة لمساعدته أيام الحرب ضد والى. فبحثوا فى طول البلاد وعرضها عن سيتا ولكنهم لم يجدوها فيها. وأخيرا نط هانومان من شاطئ الهند إلى شاطئ جزيرة سيلان. فبدأ فى البحث عن سيتا فى كل مكان فى الجزيرة ولكنه أيضا لم يتمكن العثور عليها بعد بحث طويل.

ومما هو جدير بالذكر أن الملك المارد قد تغلب على الآلهة وعلى الناس، بل وتسيطر على العالم كله، وجمع جميع النساء الحسناوات فى قصوره. وجعلهن حظيات له. وفكر هانومان بنفسه بأنه لا يمكن أن تكون سيتا من ضمنهن فى القصور. وهى تختار الموت من أن تبق فى مثل هذا المكان. وقرر هانومان للبحث عنها فى مكان آخر. وأخيرا وجدها جالسة تحت شجرة بعيدة عن القصور، وقد نحفت وتغير لونها حزنا وأسى، وأصبحت كالهلال الرقيق الذى يطلع فى الأفق فى الليالى الأولى من الشهور. وتحول هانومان إلى شكل قرد صغير واستقر فوق الشجرة المذكورة لمتابعة أنواع الضغط على سيتا، ترهيبا وترغيبا فى حين وآخر، ولكنها لم ترض حتى بسماع اسم المارد، راون. وكان المارد يرسل الماردات والحظيات الأخرى إلى سيتا لاقناعها على قبول طلب راون، ولكنهن يرجعن دائما مع خيبة الأمل. ثم نزل هانومان إلى سيتا فقص عليها قصة وصوله إليها كمبعوث خاص من راما للبحث عنها، وعرض عليها الخاتم الذى فيه ختم راما الشخصى أعطاه لهانومان كبينة لاثبات شخصيته. وأبلغها أيضا أن راما بمجرد أن يعلم بمكان سيتا سيأتى مع جيش للتغلب على المارد وإنقاذ سيتا من سيطرته الغاشمة. واقترح أيضا بأنه مستعد — إذا أرادت — لأن يحملها على كتفيه، فيوصلها إلى راما بنط واحد من شاطئ جزيرة إلى الشاطئ الآخر. ولكن سيتا التى آلت على نفسها بأنها لا تمس بدن شخص غير زوجها لم توافق على هذا الرأى عفة وطهرا، وأعطت لهانومان حلية من شعره ليبلغها إلى راما، فعاد بها هانومان. وبقيت هى فى نفس المكان فى الجزيرة.

وبعد أن علم راما جميع الأحوال عن سيتا من هانومان جمع جيشا، فسار به نحو الشاطئ الجنوبى للهند. وشيد القردة فى جيش راما جسرا يوصل بين شاطئ الهند وشاطئ جزيرة سيلان.

وبهذا كله أثبتت الأساطير الهندوسية بأن راما كان بحسما إلهيا وإلا كيف يستطيع أن يفعل كل هذه الأعمال الخارقة. ويعتقد الهندوس بأنه كان هو السابع من سلسلة التجسم الالهي فى الأرض.

وحمل القردة بأنفسهم الجبال والصخور والأشجار والأحجار اللازمة لبناء الجسر. وتقول الأسطورة إن سنجابا صغيرا كان يشترك بنفسه فى بناء ذلك الجسر، حيث كان السنجاب يحرك الجسر من كلا الجانبين ليثبته فى الرمال جيدا. وكان القردة يضحكون من فعلة السنجاب، لأنهم كانوا يحملون الجبال والأخشاب الثقيلة وكميات من الرمال لجعل الجسر قويا متينا. وهم يرون الآن سنجابا صغيرا يحاول لاثبات الجسر فى الرمال بتحريكه بنفسه! ولكن راما قد لاحظ ذلك فقال: «بورك فيك أيها السنجاب الصغير!، إنه يؤدى مهمته بقدر استطاعته، وعلى هذا فهو كبير مع صغر حجمه كأكبر واحد منكم. ثم ضرب على ظهر السنجاب بيده مع شفقة وحنان. وأن الخطوط الممتدة على ظهر السنجاب إلى يومنا هذا هى آثار الأصابع الخمس لراما التى بدت على ظهره نتيجة لذلك الضرب.

وبعد الانتهاء من بناء الجسر دخل راما وأخوه لكشمان جزيرة سيلان مع جيشهما. واشتبكوا فى قتال عنيف مع الملك المارد الجبار راون. ودامت المعارك لمدة بضعة أشهر. وأخيرا انتصر راما وقتل راون وتسيطر على العاصمة بكل ما فيها من القصور والآثار القيمة وما إلى ذلك. ثم سلمها راما إلى «ودهشانا» الأخ الصغير لراونا، مكافأة لمساعدته فى الحرب ضد راون، وأجلسه على عرش أخيه. وبعد ذلك غادر راما جزيرة سيلان مع سيتا وصحبه.

ولكن نشأ هناك تذمر وهمس بين أتباع راما حول عفة سيتا وطهارتها أثناء إقامتها فى مملكة راون. وطالبوا باجراء اختبار التطهير المعروف. فقال راما

فورا: إنها هي عين العفة. ولكن الناس أصروا قائلين: لابأس، ولكننا نريد الاختبار على سبيل الإحتياط. فأشعلوا نارا موقدة. وكان على سيتا أن تنط إليها بنفسها — كما هو العادة المتبعة في اختبار التطهير — ففعلت كذلك. وظن راما أنها قد ضاعت. ولكن لم تمض إلا لحظات أن ظهر إله النار إلى ميدان الاختبار وعلى رأسه تاج وعليه تجلس سيتا باسمة مبتهجة. وفرح الجميع وارتضوا بنتيجة الاختبار العظيم.

بهارت

حينما كان راما يقيم في المنفى جاء إليه أخوه الصغير بهارت وأخبره بموت والدهما، وطلب منه العودة إلى المملكة والجلوس على العرش. وأثناء إقامة راما في الغابات لم يجرأ بهارت أن يجلس على عرش أبيه بل كان يضع زوجا من النعال القديمة لراما على العرش بدل أخيه الذي يعيش في المنفى. وفي الأخير عاد راما إلى العاصمة وأصبح ملك أيودهيا باتفاق آراء الأمة. وحلف راما بعد اعتلاء العرش على أن يعمل لصالح الشعب والوطن وطبقا للرأي العام، كما نراه في العصر الحديث. وعاش راما وسيتا في حياة سعيدة هانئة لمدة سنين عديدة والرعايا عنهما راضون.

ولكن بعد مدة من الزمن الطويل قد ابتدأ تذمر وهمس بين أوساط الشعب حول سيتا. فقالوا إنها كانت قد اختطفها العفريت راون وأنهم ليسوا براضين بالاختبار الأول حول عفتها وطهرها. ولذا يجب أن يجرى اختبار آخر حولها أو تطرد من المملكة. وبغية لارضاء الرعايا أرسلها راما إلى إحدى الغابات لتعيش فيها حيث كانت هناك صومعة الناسك الحكيم «وال ميكى». فرآها الناسك يوما تبكى وسمع منها القصة كاملة. وقرر أن يعطى لها ملاذا في صومعته. وكانت سيتا حاملة، وبعد مدة وجيزة وضعت توأمين من الذكور. وأخذهما

الناسك فماشا فى صومعته عيشة رهبنة خالصة. وهنا أنشأ «وال ميكى» القصة الشعرية، سماها رامايَن، أى حياة راما. وعلم الولدين إلقاءها بطريقة موسيقية جذابة، لحفظاها من أولها إلى آخرها على ظهر قلب.

وجاء موعد قيام الملك راما بالقربان العظيم المعروف بـ «ياجنا» كما جرى التقليد فى العصور القديمة أن يقوم به الملوك فى أوقات متقطعة.

ولكن من التقاليد المتبعة عندهم أنه لا يجوز لشخص متزوج أن يقوم بمثل هذه المراسيم إلا ومعه «سهادهرمينى» أى زوجته أو شريكة الحياة. ونجد فى التعليمات الهندوسية آلاف القرابين والمراسيم الدينية لا يصح أداؤها للرجل إلا وبصحبته شريكة حياته. ووقع راما فى المأزق بفراق زوجته وطلب الناس منه أن يتزوج بامرأة أخرى. وهنا لأول مرة قام راما ضد الرأى العام لرعاياه وأعلن: «إن هذا أمر محال وإن حياته لسيتا لا لغيرها». وحينئذ بنوا تمثالا لسيتا من الذهب الخالص ووضعوه بجوار راما حتى يتمكن القيام بأداء مراسيم القربان المذكور طبقا لطريقة تقليدية.

وحضر الاحتفال المقام بهذه المناسبة الناسك وال ميكى أيضا مع تلميذيه «لاوا» و «كوشا» نجلى راما من سيتا. وكانت منصة كبيرة عالية قد شيدت فى مكان الاحتفال بالقربان التقليدى. ووصل راما وإخوته مع أعيان مملكته وجموع حاشدة من رعيته. فقام الطفلان بالقاء القصيدة التى وضعها وال ميكى عن حياة راما، بطريقة قد أخذت بمجاميع قلوب الحاضرين، وامتلأ قلب راما حزنا ويأسا عندما جاء قصة حياة سيتا فى المنفى، ولكنه لا يدرى ماذا يفعل؟ فقال له الناسك: «لا تحزن إنى أوريك سيتا» وظهرت سيتا فجأة على المنصة ونظر راما إلى زوجته، واندهش الجميع، وتذكروا بالمس القديم وهتفوا: الاختبار! الاختبار!

وتعبت سيتا المسكينة من تحمل المشقات وأنواع من المتاعب، وسماع تهم الناس. فطلبت فورا من الآلهة لاثبات براءتها وعفتها. فتفتحت لها الأرض، وقالت سيتا بصوت عال: هذا هو الاختبار! ثم اختفت فى جوف الأرض. وأسف الناس على هذه النهاية المؤلمة. وأصبح راما حزينا بائسا.

وبعد بضعة أيام من اختفاء سيتا، جاء إلى راما مبعوث من الآلهة يبلغه بأن مهمته فى الأرض قد انتهت، وقد حان له الأوان للعودة إلى الجنة. وظن راما أنه الفراق ورضى به. وغاص فى مياه النهر الكبير «سرايو» الذى كان يجرى فى عاصمته والتحق بسيتا فى العالم الأخروى.

هذه هى خلاصة قصة «راماين». وعندما ندرس هذه القيم الأخلاقية والنظريات العالية نجد بسهولة البون البعيد والفرق الشاسع بين النظرية الهندية وبين النظرية الغربية. إن النظرية الغربية تقول: «إعمل! وأبد قوتك بالأعمال»— بينما تقول النظرية الهندية: «أبد قوتك بالتحمل والتضحيات». وحل الغرب مشكلة أقصى ما يمكن أن يكسبه الانسان، وأما الهند فحلت مشكلة أدنى ما يكتفى به الانسان. وهما نظريتان متباعدتان ولا قاسم مشتركا بينهما.

وإن سيتا رمز الهند — الهند المثالية. وليست المسألة هل كانت سيتا امرأة واقعية أم خيالية خرافية، وهل الأسطورة حقيقية أو وهمية تصورية. ولكن الأهم بالاعتبار أن النظرية كانت حقيقة ثابتة. ولا نجد أسطورة من الأساطير لها هذه المكانة العليا فى قلوب الملايين، واندمجت نظرياتها مع دماء جنس خاص مثل ما لنظرية سيتا فى «راماين». وطوال هذه المدد الطويلة المليئة من المتاعب والمشاق لم تصدر من فم سيتا كلمة واحدة ضد راما أو تجرح قلبه. وتلقت هذه المحن كلها كأنها من الواجبات الملقاة على عاتقها، ويجب أن تقوم بها بقلب راض مطمئن. ألا ترى تلك الخطة الجائرة لطردها من البلاد إلى

المنفى فى الغابات ! ولكن سيتا لم تشعر بالمرارة ولم تضمر الحقد أو البغض والكراهية تجاه أحد. وهذه هى النظرية الهندية ومثالها الحى.

ويقول القديس القديم بوذا العظيم : «إذا بادلت الأذى الذى أصابك من الآخر بأذى مثله فإنه لا يضمد الأذى الأول، بل وأنه يضيف شرا آخر فى العالم».

وكانت «سيتا» هندية خالصة محضة بطبيعتها، ولم تبادل أبدا الأذى بالأذى والشر بالشر.

(Acknowledged with thanks from "Indian Literature", Bharatiy Vidya Bhavan Bombay)